مادة مفاهيم ونصوص فلسفية

S1

ذ.محمد مزيان

كلية الآداب والعلوم الإنسانية(جامعة ابن طفيل/القنيطرة)

مسلك الفلسفة و ع.ج

الموسم الجامعي:2020-2021

الحصة الثامنة

بهذا يكون"سبينوزا" قد دشّن عصرا لايمكن فيه للامتناهي أن يتجلى إلا على صورة المتناهي. وإذا كان الله عند "لايبنتز" يستعصي عن لعبة الإدراك المتبادل بين الموناد‌ات فها نحن نجد "سبينوزا" يؤكد أن "الجوهر هو أحد الصفات اللامتناهية لله"(89)؛ثم يضيف :"ليست الأشياء الفردية إلا انفعالات لصفات الله،أي أحوالا من خلالها يتم التعبير عن صفات الله بطريقة محددة ودقيقة"(90). لم يعد المحسوس إذن متّهما بل أصبح مجالا لتجلي الله-المطلق. اتخذ المطلق شكلا حيث أعيد الإعتبار للشكل-الجسم،فالمتناهي الآن يشارك جوهريا في تجلي المطلق. ولعل هذا التحايث الذي أتى على التفاضل القيمي بين التناهي واللامتناهي هو ما حال دون عودة نظرية وحدة الوجود إلى نظرية الخلق.

إن القول بالتحايث بين مستويات الوجود كان تخطّيا للتصورالثنائي للوجود،ثنائية النفس والجسد،الإنسان والله،الأفكار والأشياء،الحرية والضرورة... إن النتيجة المباشرة لتحلّل هذه الثنائيات في صلب كلية متناظرة المستويات هي ما عبّر عنه "سبينوزا" بقوله : "نحن جزء من الطبيعة الكلية حيث نتبع لنظامها"(91). يعنى هذا أن الأنا غير ممكنة قبل هذه الكلية المتناظرة،فهي جزء من لعبة التعبير المتبادل. وعندما يقول "سبينوزا":"ليست الرغبة إذن غير ماهية الإنسان"(92) فلا يفيد هذا التحديد أبدا الرغبة بمعناها السيكولوجي،أي إن "سبينوزا" عندما يرادف من حين لآخر بين الرغبة والإرادة فذلك لايعني أن الرغبة بوصفها إرادة هي فعل على مقاس مقاصد الذات،بل إنه "إذا كانت هناك إرادة يفترض أنها لانهائية،فيلزم أيضا أن تكون محددة،في وجودها وإنتاجها لمفعول ما،من خلال الله". يعني هذا أنه "لايمكن أن يقال عن الإرادة هي علّة حرة،لكن فقط إنها ضرورية وملزمة"(93). فالرغبة باعتبارها إرادة اكتمال وحفظ الفعل والفكر في ماهيتيهما هي محكومة بالضرورة،ذلك أن "الناس يخطئون عندما يعتقدون أنهم أحرار"(94).

ليست ماهية الإنسان ذاتا على صورة الذات المطلقة،بل إن ماهيته عطاء لشروط إمكان تتعدى النيّة والقصد. لعل تبيّن ذلك هو ما يقود الإنسان إلى السعادة،في حين أن المحيد عنه يقوده نحو الجهل والشقاء. وعندما يقول "سبينوزا":"ليست الفضيلة شيئا آخر غيرالفعل وفقا لقوانين الطبيعة الخاصة"(95) فهو بذلك يحدد الشرط العام لسعادة الإنسان،لاسيما وأنه يقول:"تتمثل السعادة بالنسبة للإنسان في القدرة على حفظ وجوده"(96). لن تتأتى عملية الحفظ هاته إلا بإدراك الإنسان لرغباته ضمن شروط إمكانها الضرورية،فالأنا هي جملة شروط إمكانها وليست ماهية جوهرية معطاة.

لايريد "سبينوزا" أن يقول من خلال كل هذا غير أن الإنسان كائن متناه في ماهيته،وعليه أن يدرك ذلك باعتبار أن هذه الحقيقة هي مصدر قوته وفرحه؛فالإنسان يكون قويا أي متصالحا مع ماهيته عندما يدرك فعله كفعل متناه،لذلك انتهى "سبينوزا" إلى قول:"إنه بقدر ما نتعرف على أسباب الحزن فإنه

ينتهي من أن يكون معاناة... فبقدرما أن الله هو علة الحزن فإننا بذلك نؤكد الفرح"(97)،والحقيقة أنه ليس أكثرمن هذا تمجيدا للتناهي.

الإحتفاء إذن بالتناهي هو جديد كتاب "الأخلاق"،وسموّ الأنا لايتأتّاها من إدراكها لوجودها بوصفها ذاتا- سيّدا بل بوصفها ذاتا متناهية حيث التناهي سرّعظمتها. وإذا كان التناهي نقصا يبعث على مشاعر الضعف في عرف الذاتية فإن التناهي في تصور"سبينوزا" قوة لا تبعث على الرّعب والتخويف بل إنه الحياة في ماهيتها الأساس،ولعل هذا مايريده "سبينوزا" من قوله إن حب الله يقلل الخوف من الموت. يتعلق الأمر بحب المطلق وقد استحال محايثا أي الله-الطبيعة حيث حبّنا له هوحب لقدرنا على علاّته،إنه حبّ بما هو رفع للرعب ومواجهة للخوف. فالله هو من هذا العالم وفيه،وبقدرما نحن أيضا من هذا العالم وفيه فلن يصيبنا إلا ما تقتضيه طبيعة وجودنا هاته التي لا يأتيها تناهيها من "هناك" بل إنه حقيقتها المحايثة التي يلزم أن نتصالح معها؛فلن يخيفنا الموت أو الحزن والمرض إذا ما اعتبرنا أنه تحصيل حاصل لطبيعتنا التناهية.

لعل هذا ما شغل "سبينوزا" في كتابه الأساس،لذلك قال "دولوز":"إن كتاب الأخلاق يحكم على المشاعروأنواع السلوك والنوايا بإرجاعها إلى أنماط وجود تفترضها أو تتضمنها وليس إلى قيم متعالية"(98)؛ فالإنسان لايقاس بالنظر إلى عالم "هناك" لأنه ببساطة لاعالم غير عالم"هنا" وذلك منذ أن أصبح الله من هذا العالم. وبحسب قول "دولوز" يكون "سبينوزا" قد أدرك توابع القول بالثنائيات الأفلاطونية،ذلك أن إشهار عالم "هناك" في مقابل عالم "هنا" شكّل أداة لتهويل الوضع الإنساني ومصدرا لتخويف الإنسان وترهيبه؛فالثنائية هي بهدف المفاضلة التي تنتهي إلى ترويع عالم "هنا" بدالّة عالم "هناك". يتعلق الأمر إذن بلعبة السلطة والإخضاع يلعبها أناس ضد آخرين،لذلك يجوز القول مع "دولوز": "يندرج سبينوزا ضمن تقليد شهير:المهمة العملية للفيلسوف تقوم على فضح كل الأساطير كل التضليلات كل الخرافات مهما يكن أصلها". ثم يتابع:"و**سبينوزا** مثل **لوكريس** يعهد إلى الفيلسوف مهمة فضح كل ماهو حزين،كل ما يعيش من الحزن،كل الذين يحتاجون إلى الحزن ليرسخوا قدرتهم"(99).

هكذا يتبين أن تخطي كتاب "الأخلاق" للنزعة الأفلاطونية التي شكّلت عمادا للأديان وللإيديولوجيات والفلسفات،كان في سياق تخطي صعوبات الذاتية التي باستعادتها للثنائيات الأفلاطونية تكون قد شكّلت سندا لإخضاع الإنسان للإنسان؛إنها تبرر وضعية السلطة كتحكّم. لذلك انتهى "دولوز" وهو بشأن "سبينوزا" إلى النتيجة التالية:"إن تجريد الإنفعالات الحزينة من قيمتها وفضح الذين ينمونها ويستخدمونها يشكلان الغرض العملي للفلسفة" وذلك لأن "كل ماهو حزين سيء ويجعلنا عبيدا،وكل ما يغلف الحزن يعبرعن طاغية"(100). لعل ذلك هوالأصل البعيد لقول "سبينوزا" بوحدة الوجود،فحيث يكون القول بالتعالي يكون التحقق المباشر لإمكان

الإخضاع والتحكم. وفي المقابل،حيث يكون القول بالتحايث يكون تلاشي مبرر الخوف لينحل الحزن إلى فرح،إذ "الأخلاق التي هي فلسفة التأكيد الخالص هي،أيضا،فلسفة الفرح الذي يقابل هذا التأكيد"(101).

2- الأنا والوجود الجماعي .

مامصيرالتفكير في الوجود الجماعي وقد تحددت ماهية الإنسان من خلال نظرية الخلق؟ لعل النتيجة المباشرة لذلك هو ما يعلنه هنا "ألكيي" بشأن "ديكارت": "لقد اختار ديكارت أن يكون خاضعا فيما يتعلق بالفعل وخلاّقا فيما يتعلق بالفكر"(102). صحيح إنه فيما يتعلق بالتفكيرالعقلي أي بنظرية المعرفة فالكلمة الأخيرة هي للعلم الرياضي كما بيّن ذلك كتاب "ديكارت"الأساس في هذا الشأن أي "قواعد من أجل توجيه العقل"،هنا لامكان لله ولاذكرله. هنا ينحصر الإبداع في الإنفصال المعلن عن التصورات اليونانية الأفلاطونية والأرسطية. هذا الإنفصال لم يحدث فعلا في مجال الفعل،مجال العلاقة مع الغير بوصفها علاقة أخلاقية. فقد ارتأى "ديكارت" كفاية التعاليم المسيحية إذ لم يعمل حتى على اجترار التصورات الأخلاقية للمدارس اليونانية،بل إنه صمت تماما عن مسألة الوجود الجماعي كما لو أن الأمر يتعلق بوجود بديهي هو عطاء إلهي ليس في وسعه أن يكون إلا كما هو عليه أصلا،فلايحق الشك فيما يشكل هبة إلهية. لذلك نادرا ما يشير "ديكارت" إلى المسألة الأخلاقية حيث لايبدي أية رغبة في بحثها،وفي أقوى إشارة له بشأنها هي ضمن كتاب "مقال حول المنهج" حيث أعلن أنه بصدد تشكيل أخلاق من خلال بضع قواعد،يقول عن أولاها التي تهمّنا هنا:"الأولى هي الخضوع لقوانين وعادات بلادي محافظا باستمرارعلى الدين الذي كرّمني الله بتعلمه منذ طفولتي"(103). يبدي "ديكارت" إذن،عجزا عن مراجعة القيم الأخلاقية السائدة والتي تجد مرجعها الأساس في تعاليم الوحي التي يقول بشأنها:"إن حقائق الوحي التي تقود الناس تتخطّى عقلنا،وليس في مقدوري إخضاعها لضعف استدلالاتي. بل أعتقد أنه من أجل القدرة على معالجتها والنجاح في ذلك يكون الشخص في حاجة إلى رعاية خارقة من السماء وأن يكون أكثر من كونه إنسانا"(104). ليس في وسع العقل إذن طرح بديل للقيم الأخلاقية والدينية،بل إن كل مايلزمه هو الخضوع لها.

لعل أن المرجع والمضمون الديني للأخلاق هو ما جعل "ديكارت" يضعها على رأس شجرة العلوم. إلا أن اعتبارها كأسمى وأرقى قيمة من غيرها شكّل الشرط الأساس لطيّها في غياهب النسيان،فبقدر تقديس مبحث الأخلاق بفعل المرجع الديني بقدرما تعذّر التفكير فيه والشك في منطلقاته،لاسيما وأنه تبيّن فيما بعد مع "كنط" أن طرح سؤال الأخلاق يغيّر حتما من وضعية الدين ومقامه. لقد انتهى "كنط" إلى أن الدين لايكتسب قيمته الحقيقية إلا على ضوء نظرية الأخلاق مع ما رافق هذه الثورة من متاعب لفيلسوف"كونكسبورغ"،فنحن نعلم معاناة الرجل جراء كتابه "الدين في حدود مجرد العقل"؛وقد يكون هذا العامل فاعلا إضافيا في تجنّب "ديكارت" طرح

سؤال الأخلاق لاسيما وأننا نعرف الطبيعة الإحترازية للرجل من خبث وكمائن رجال السياسة والدين،فهذا على الأقل ما تعلّمنا إيّاه رسائله المتبادلة بشأن مسألة دوران الأرض أو عدمه. لقد كان "ديكارت" رجلا متريثا بفعل حيثيات عصره فمازال يعلق بذاكرته مصير "برينو جيوردانو" و"كاليلي" ثم "كوبرنيكوس"؛ولعل هذا ما يفسر تفويته فرصة طرح سؤال الوجود الجماعي ضمن كتابه "أهواء النفس" الذي اقتصر فيه على شروحات طبية بيولوجية لاتثير حفيظة المحافظين،وهي بذلك ليست من الإبداع الفلسفي في شيء. لذلك قال "سبينوزا" بشأن هذا الكتاب:"ذلك كان هو رأي هذا الرجل المرموق وبالكاد اعتقدت أنه لهذا الرجل العظيم"(105).

الهوامش

89)- Spinoza(Baruch),L'Ethique,p80, Gallimard,1954.
90)- ibid,p93.
91)- ibid,p347.
92)- ibid,191.
93)- ibid,98.
94)- ibid,153.
95)- ibid,284.
96)- ibid,284.
97)- ibid,p367.
98)- دولوز(جيل)،سبينوزا ومشكلة التعبير،ص223،ت.أنطوان الحمصي،أطلس للنشر،2004.
99)- نفسه،ص224-225.
100)- نفسه،ص225.
101)- نفسه،ص226.

102)- Alquié(Ferdinand),la découvèrte métaphysique de l'homme…t1,p179,ceres,1995.
103)- Descartes (René),Discours de la méthode,p52 ,Grands Ecrivains,1960.
104)- ibid,p23.
105)- Spinoza(Baruch),L'Ethique,p358, Gallimard,1954.